1

فقال الرجل: «بنسًا واحدًا؟ لماذا؟ سأمنحك ثلاثة!» وأخرج ثلاثة بنسات من جيبه وأعطاها لهوجو وهو يقول: «خذ هذه الأموال واجلب لنفسك بعض الخبز. والآن تعال هنا يا فتى» وجه الرجل حديثه لإدوارد. «ساعدني في حمل أخيك إلى منزلكما.»

قال إدوارد: «إنه ليس أخي.» وضم ذراعيه إلى صدره.

– «ماذا؟ ليس أخاك؟»

فرد إدوارد: «إنه متسول ولص.»

قال الرجل: «كلاكما لصوص!» ووقف وصاح: «الشرطة! ليستدعي أحد الشرطة. هذان الصبيان كانا يحاولان خداعي! ادعى أحدهما المرض ليتمكن الآخر من سرقتي. النجدة!»

هب هوجو على قدميه وهرب ليختفي في أحد الأركان في بضع ثوانٍ فقط. واستغل إدوارد لحظة الحرية هذه، حيث استدار وركض في الاتجاه الآخر. فكان يعلم أن الشرطة لن تصدقه.

ركض إدوارد إلى خارج المدينة وعلى طول الطريق، وظل يركض إلى أبعد مكان أمكنه الوصول إليه. ولحسن حظه، وصل إلى أحد منازل المزارع التي لا تبعد عن المدينة. وفكر في أن يطرق الباب، لكنه كان يشعر بإعياء شديد، ولم يرد أن يجازف بالتعرض لمزيد من السخرية والإهانات. فقد أعياه قول الحقيقة وعدم تصديق أحد له. لم يقف أحد بجانبه سوى مايلز، ولم تكن لدى إدوارد أي فكرة عن كيفية العثور عليه.

سار إدوارد باتجاه الحظيرة، وتفقد أرجاء المكان ليتأكد من خلوه. كان الهدوء يخيم على المكان، فدخل إدوارد ووجد مكانًا يستلقي فيه؛ وكان مكانًا لطيفًا ودافئًا.

وفي اللحظة التي كاد إدوارد ينام فيها، شعر بشيء بجواره؛ كان شيئًا كبيرًا وذا رائحة غريبة. فتسمر إدوارد في مكانه وقد ملأه الرعب من أن يلاحظه هذا الشيء، ومد يده برفق، لكنه كان مرتعدًا، فسحبها سريعًا مرة أخرى. وحاول مرة تلو الأخرى، حتى لمس في الآخر حبلًا. استدار لينظر إلى ما أمسكه وعندها أدرك أنه لم يكن حبلًا على الإطلاق! لقد كان ذيل عجل.

اطمأن إدوارد لمعرفته بأن هذا الكائن الغريب لم يكن سوى عجل. وشعر بالسعادة أيضًا لعلمه أنه لم يكن بمفرده؛ فكان يشعر بأنه وحيد وبلا أصدقاء، وكان من اللطيف أن يكون له رفيق. استدار إدوارد ناحية العجل وراح في النوم وهو يمسح على رقبة الحيوان.

الفصل الثاني عشر

وقت للمشاركة

فتح إدوارد عينيه في الصباح التالي ليرى طفلين يحدقان به؛ صبي وفتاة ينظران إليه في صمت. فحدق إدوارد فيهما بدوره.

سألت الفتاة: «من أنت؟»

قال إدوارد: «أنا الملك القادم.»

فسأل الصبي: «الملك القادم؟ ملك ماذا؟»

رد إدوارد: «ملك إنجلترا.»

نظر الطفلان أحدهما إلى الآخر في دهشة، وهمست الفتاة: «هل … هل يمكن أن يكون ما يقوله صحيحًا؟»

قال الفتى وهو يفكر متأملًا: «حسنًا، لم تسبق لي رؤية الملك القادم، لذلك لا يمكنني أن أقول إنه ليس الملك.»

وأضاف: «إذا كنت الملك القادم حقًّا، فسوف نصدقك.»

فرد إدوارد: «أنا هو صدقًا.» وابتسم، فأخيرًا وجد من يصدقه.

قالت الفتاة: «إذن، يجب أن ترافقنا إلى الداخل. تعد والدتنا الإفطار، ويمكنك الانضمام إلينا.»

تبِع إدوارد الطفلين إلى داخل المنزل، واستقبلته والدتهما بترحاب. ولاحظت حالة ملابسه واتساخ وجهه، وأخبرها طفلاها أنه ملك إنجلترا القادم. راقبته وهو يجلس على المائدة ويأكل سلطانية من طحين الشوفان؛ فكان وقورًا ومهذبًا حقًّا. وشعرت بالشفقة حيال هذا الفتى المسكين.

وقالت له: «يسعدنا وجودك هنا، جلالتك. فهو شرف لنا تواجدك معنا على مائدتنا.»

أنهى إدوارد إفطاره، واسترخى في كرسيه وهو يشعر بالامتلاء والرضا. كانت السيدة وطفلاها يستعدون للذهاب إلى العمل. وعند خروجها من الباب، طلبت من إدوارد تنظيف أطباق الإفطار.

فكر إدوارد: «ماذا؟ ملك إنجلترا القادم يغسل الأطباق؟» وكاد أن يعترض، لكنه فكر ثانيةً: «يجب أن أرد إحسانها بإحسان. هذا أقل ما يمكنني فعله.»

لم يؤد إدوارد مهمته على نحو جيد، وأدهشه مدى صعوبة تنظيف الملاعق والسلطانيات الخشبية. واستغرق الأمر منه وقتًا طويلًا للغاية، وكانت النتيجة أبعد ما تكون عن الإتقان، لكنه كان فخورًا بنفسه. فقد تعلم فعل شيء جديد تمامًا.

واصل إدوارد مساعدة الأرملة طوال النهار. فقشر بعض التفاح على نحو سيء للغاية، وكنس الأرضية على الدرجة نفسها من السوء. وقبل الظهيرة أرسلته الأرملة إلى الحظيرة مع ابنها ليساعده في إطعام الأبقار. وفعل إدوارد كما طلبت منه.

اتبع إدوارد تعليمات الصبي الأصغر منه سنًّا، وصب الحبوب في المعلف للأبقار. لم يكن معتادًا على هذا العمل الشاق، ولاحظ الصبي أن إدوارد يعاني في حمله لحقيبة الحبوب، فسأله: «هل أحضر لك كوبًا من الماء؟ تبدو عطشًا.»

قال إدوارد: «نعم، رجاءً. هذا لطف بالغ منك.» فركض الصبي الصغير عائدًا إلى المنزل بينما واصل إدوارد عمله.

وفجأة سمع إدوارد صوتًا مألوفًا خلفه، فأسقط حقيبة الحبوب من يده.

قال السيد كانتي متسائلًا: «هل تخليت عن سلوك الأمراء؟»

استدار إدوارد للخلف ببطء، وكان السيد كانتي يقف هناك واضعًا يديه بجانبيه ومبتسمًا لإدوارد بدناءة.

فكر الصبي أن يركض، لكنه كان محاصرًا، وكان يعلم أنه لا أمل له في الهروب. اقترب هوجو من باب الحظيرة، وقد اندهش لرؤيته إدوارد بالداخل. فقد اكتشف هو والسيد كانتي هذه الحظيرة بالمصادفة أثناء بحثهما عن مأوى لهما، ولم يتوقعا بالتأكيد العثور على الصبي هناك. ودون أن ينبس بكلمة، أمسك السيد كانتي بذراع إدوارد بينما وضع هوجو يده الأخرى على فمه، وتحركوا بسرعة وهدوء حتى لا يسمع أحد بالمنزل أي شيء.

الفصل الثالث عشر

العودة إلى اللصوص

عاد الملك فوو فوو للترحال مع مجموعة اللصوص من جديد. وكان السيد كانتي يعمد إلى مضايقة إدوارد كلما أدار «الزعيم» ظهره، كما كان هوجو يطأ على أصابع قدميه، ويصطدم به ثم يدعي أن الأمر كان حادثًا. بل إنه حاول كذلك إيقاعه.

رفض إدوارد الرد على أيٍّ من إهانات هوجو؛ فلن يدنو بنفسه إلى مستواه. أيضًا أبى المشاركة في أي من الأنشطة غير القانونية للمجموعة؛ فما كان ليسرق معهم أو يتسول في الشوارع. وسار معهم منتظرًا سنوح فرصة له للهرب.

هذا وكان هوجو يعد خطة خاصة به. لقد أدرك أن الوسيلة الوحيدة للتخلص من إدوارد هي أن يُلقى القبض عليه. فإذا هرب إدوارد، فسوف يبحث عنه السيد كانتي. لكنه إذا كان في السجن، فسوف يمضون في طريقهم من دونه. لقد ضاق هوجو ذرعًا بهذا الفتى الذي يستقطب اهتمام الجميع، وكان هوجو قد بدأ يعتبر السيد كانتي كوالده ولم يرغب في المنافسة.

عرض هوجو أن يأخذ إدوارد إلى القرية التالية للبحث عن أموال. وبحث عن الهدف المناسب بعناية فائقة؛ فهو يعلم أن أمامه فرصة واحدة فقط. فاختار سيدة تحمل سلة طعام، وتحرك هوجو بسرعة كبيرة، وخطف السلة من السيدة وهرب.

لم يصدق إدوارد حسن حظه، فهو بمفرده! وما كاد يستدير ويجري في الاتجاه الآخر حتى ظهر هوجو مرة أخرى، ودفع بالسلة بين ذراعي إدوارد. وقبل أن تسنح لإدوارد الفرصة ليدرك ما حدث، صاح هوجو: «قف! لص!» ثم جرى في أحد الأركان ليراقب ما يحدث من بعيد.

أسقط إدوارد السلة، واندفعت السيدة نحوه وانتزعت طعامها. وجاء معها عدد من الأشخاص الذين أمسكوا بإدوارد.

صاح إدوارد: «دعوني وشأني! فأنا لم أخطئ.»

وزاد الجمع وأحاط بإدوارد المزيد من الناس. وأوشك الصبي على الاستسلام عندما سمع صوتًا مألوفًا يقول: «ابتعدوا عن الصبي!»

شاهد إدوارد سيفًا طويلًا يفرق الجمع، فتنحى الجميع جانبًا وسار مايلز نحو الملك القادم.

قال إدوارد: «سير مايلز، كنت أتساءل متى ستصل.»

مال مايلز ليهمس في أذن إدوارد. ثم قال إدوارد: «يجب أن نتوخى الحذر سير. فلا يزالوا أكثر منا بكثير.» فابتسم مايلز، لقد نسي أنه نال الآن لقب سير. لا تزال ذاكرة الصبي قوية للغاية، بالرغم من جنونه. أثار هذا الأمر دهشة مايلز.

وفي تلك اللحظة وصل أحد رجال الشرطة، وقبل أن يتمكن من التحدث، قال مايلز: «شكرًا للرب على وصولك. فلتكن في المقدمة، أرجوك، وسنتبعك.» ووضع مايلز يده على كتف إدوارد وأخبره أن يظل هادئًا، فأطاعه الملك القادم.

وبينما كان مايلز وإدوارد يتبعان رجل الشرطة، أخذا يتحدثان بهدوء.

سأل مايلز: «لقد سن الملك القوانين، أليس كذلك؟» فأومأ إدوارد برأسه. «كيف إذن يمكن أن نحترمها ونقاومها في الوقت نفسه؟ يجب أن يكون لدينا إيمان بأن هذه القوانين ستحمي البريء كما تعاقب المذنب بالضبط.»

أمل إدوارد أن يكون مايلز محقًّا. فقد شهد في الأيام القليلة الماضية أحداثًا جسامًا جعلته يتشكك في كلام مايلز.

وقف إدوارد أمام القاضي، ودخلت السيدة التي كانت تحمل السلة إلى المحكمة. طلب القاضي من السيدة أن تكشف عن محتويات السلة؛ فكانت عبارة عن خنزير سمين جاهز للطهو.

سأل القاضي: «ما قيمة هذا الخنزير في تقديرك؟»

فأجابت: «ثلاثة شِلنات وثمانية بنسات، يا سيدي.»

نظر القاضي في أرجاء قاعة المحكمة المكتظة بالناس، وطلب من الحراس إخراج الجميع ما عدا مايلز وإدوارد والسيدة.

قال القاضي: «سيدتي، أرجو أن تمعني النظر في هذا الأمر. فقد كان هذا الفتى على الأرجح جائعًا ومتعبًا عندما سرق سلتك. وعدم امتلاك المرء شيئًا يأكله يدفعه لفعل أمور غريبة. والآن يا سيدتي، هل تدركين أن من يسرق شيئًا تزيد قيمته عن شِلنين وأربعة بنسات يُرسَل إلى إصلاحية للأحداث؟»

شهق إدوارد، فلم تكن لديه فكرة أن مثل هذا الأمر يمكن حدوثه. كان يعلم أن الأمر خطير، لكن هل يمكن أن يُرسَل إلى إصلاحية للأحداث؟

صاحت السيدة: «يا إلهي، لا! ماذا فعلت؟ لا يمكن أن يذهب هذا الصبي للإصلاحية بسببي. ماذا يجب عليّ فعله؟»

قال القاضي بهدوء: «نصيحتي لكِ هي أن تخفضي من قيمة الخنزير.»

فقالت: «إذًا، فلنقل أنه بثمانية بنسات.»

كان مايلز شديد الانفعال لدرجة أنه عانق إدوارد أمام الجميع، وشعر الصبي بالإحراج لكنه لم يقل شيئًا.

التقطت السيدة سلتها وغادرت قاعة المحكمة سريعًا. أمسك أحد الحراس الباب لها، ثم تبعها إلى الخارج. وتبعهما مايلز الذي كان فضوليًا لمعرفة سبب مغادرة الحارس.

قال الحارس للسيدة: «هذا خنزير سمين. سأشتريه منك، إليك ثمانية بنسات.»

ضحكت السيدة وهي تقول: «ثمانية بنسات! لا تكن سخيفًا! هذا الخنزير يساوي أكثر من ذلك بكثير.»

«سيدتي، لكنك أقسمت أن هذا الخنزير يساوي ثمانية بنسات، فهل كنت تكذبين؟»

ابتسم الحارس، وقد اعتبر نفسه ماهرًا للغاية. وعندما لم تجد السيدة مخرجًا، أعطت الخنزير للحارس. فأخذه منها وخبئه في مكان سري قبل أن يعود إلى المحكمة.

عاد مايلز إلى إدوارد في الوقت المناسب ليسمع حكمًا يصدر عليه بالسجن لفترة قصيرة. استشاط الصبي غضبًا، وكان على وشك الاحتجاج والصراخ عندما وضع مايلز يده مرة أخرى على كتفه، وهو يقول له: «أرجو منك أن تصبر فترة قصيرة من الوقت فقط يا سيدي. وأعدك أنك لن تعاني في السجن أبدًا.»

رأى إدوارد أن يثق في مايلز وأن يبقى هادئًا. فليس لديه خيار آخر في نهاية الأمر.

تبع مايلز وإدوارد الحارس في ميدان عام. وكانت الشمس تغرب، والهواء يزداد برودة، والناس يتجهون إلى منازلهم لينعموا بالدفء.

نقر مايلز على كتف الحارس، وقال له: «أود التحدث معك لحظة.»

فأجاب الحارس: «ليس لدينا وقت لذلك. فمن المتوقع استقبال الصبي في السجن.»

قال مايلز: «سأقول لك ذلك مرة واحدة وأتمنى أن تعيه.» ومال بالقرب من الحارس وهو يقول: «دع الصبي يهرب.»

– «ماذا؟ هذا سخف!»

تحدث مايلز بهدوء: «لقد سمعت كل كلمة قلتها لتلك السيدة. هل تود أن أخبر القاضي بما حدث؟ ستفقد وظيفتك بالتأكيد إذا علم القاضي أنك خدعت تلك السيدة الأمينة.» وصمت لحظة ثم قال: «أو ربما سيقرر القاضي أن من يستحق قضاء فترة في السجن هو أنت.»

حدق الحارس في مايلز وهو لا يصدق ما يسمعه. ولم يستطع أن ينطق بأي كلمة.

قال مايلز: «عظيم، سأسرع عائدًا إلى المحكمة لأتحدث مع القاضي.» واستدار ليغادر المكان، لكن الحارس أمسك بذراعه.

«لا، انتظر. فلن يرأف القاضي بحالي.» وأخذ الحارس نفسًا عميقًا. «إذن، حسنًا، يبدو أنه لا خيار أمامي. لكن أسرِع.» وأخذ الحارس نفسًا عميقًا آخر واستدار.

وقال: «سأعد لعشرة، إذا رأيتكما هنا عندما أستدير، فسوف آخذكما إلى السجن.»

وقبل أن يعد الحارس إلى ثمانية، كان مايلز وإدوارد قد ابتعدا تمامًا وتجاوزا العديد من الشوارع.

الفصل الرابع عشر

قصر هيندون

استغرقت الرحلة إلى قصر هيندون عدة أيام على ظهور الخيل، وأخيرًا قال مايلز: «انظر يا سيدي.» وأشار إلى منزل كبير قابع على تل. «هذا هو منزلي! قصر هيندون.» لاحظ إدوارد عيون مايلز وقد اغرورقت بالدموع.

قال مايلز: «أتساءل هل سيتذكرني أحد. هل لا يزال جميع الخدم أنفسهم هناك؟ لا، هذه سذاجة مني.» وهز رأسه قليلًا: «سيجن والدي وأخواي وليدي إيديث من الفرحة عندما يرونني.» ونظر إلى إدوارد، وقال: «كما سيسعدون للغاية لمقابلتك.»

ترجل مايلز عن حصانه، وسار إلى المنزل واندفع عبر الباب الأمامي. وكان إدوارد خلفه على مقربة منه.

كان المنزل من الداخل كئيبًا ويغلفه الحزن. وبدت الغرف باردة بالرغم من النيران القوية في المدافئ. سار مايلز برشاقة إلى داخل الغرفة الأمامية، وكان هناك رجل يجلس أمام النار، وظهره للباب.

صاح مايلز: «هيو! كم أنا سعيد لرؤيتك. فلتقف وتعانق أخاك.»

وقف هيو سريعًا، وعندما رأى مايلز، ارتد للخلف فجأة. وقد بدا في أول الأمر مندهشًا، لكنه سرعان ما استعاد هدوءه، وأمعن النظر في مايلز.

«أخشى، أيها الغريب، أنه قد اختلط عليك الأمر. فأنا لست أخاك.» عبس هيو في وجه مايلز. لقد تعرف على أخيه في التو، لكنه لم يرد أن يعلم مايلز ذلك.

قال مايلز: «عذرًا» وسار خطوة أخرى للأمام ثم قال: «ألست هيو هيندون؟»

فقال: «نعم، أنا هيو. لكن من أشك فيه هو أنت.»

– «أنا مايلز! أعلم أنني قد غبت طويلًا، لكن لا يمكن أن أكون قد تغيرت بهذا القدر.»

وقف هيو منتصبًا، وقال: «كيف تجرؤ! أخي توفي من سبع سنوات. اخرج الآن، وإلا سأجعل الشرطة تقبض عليك بتهمة الاحتيال.»

حاول مايلز أن يبدي اعتراضه، لكن هيو رفع يده، وقال: «تلقينا خطابًا يقول إن أخي مايلز قُتل في إحدى المعارك، وبكيناه منذ سنوات عديدة.»

قال مايلز: «دعني أرى والدنا.» وكاد يصرخ، فلماذا لا يصدقه أخاه؟ «سيتعرف عليَّ أبونا على الفور.»

قال هيو بهدوء: «لا يستطيع المرء استدعاء الموتى.»

«أبونا مات؟» أمسك مايلز برأسه بين يديه. «والدنا الحبيب المسكين.» ونظر إلى هيو مرة أخرى. «وماذا عن ليدي إيديث؟ هل هي بخير؟ هل لا تزال تعيش في قصر هيندون؟»

قال هيو: «بالطبع.»

فسأل مايلز: «وأخونا آرثر؟ هل لا يزال على قيد الحياة؟»

قال هيو: «لا، أخي توفي منذ نحو ست سنوات.»

– «فلتستدع الخدم إذن، سيتعرفون عليَّ. فأي شخص عرفني وأنا صغير سيتعرف عليَّ. لقد عملوا جميعًا هنا سنوات عديدة.»

قال هيو: «للأسف، معظمهم رحلوا، لكنني سأستدعي البعض إلى هنا إذا كان ذلك سيثبت وجهة نظرك.» وغادر هيو الغرفة.

أخذ مايلز يمشي جيئة وذهابًا، وهو يقول: «لا أفهم شيئًا مما يحدث. فبعد سنوات عديدة في معسكر الأسر، وهروبي، والصعوبات التي قابلتني لأعود إلى المنزل، لا أحد يتعرف علي. هذا أشبه بالحلم المزعج.» واستدار إلى إدوارد: «أرجو أن تصدقني جلالتك. هذا منزلي، وهذا كان أخي هيو. وأدعى مايلز هيندون.»

قال إدوارد ببساطة: «لا شك لدي فيك. فأنت لم تشك فيّ، وسوف أمنحك التقدير ذاته.»

سالت الدموع مرة أخرى من عيني مايلز، وقال: «شكرًا لك يا سيدي، إنني أشكرك من كل قلبي.»

فجأة، انفتح أحد الأبواب، ودخلت سيدة جميلة يتبعها على مسافة قريبة هيو. سارت السيدة بتمهل، ورأسها منخفض، وعيناها مثبتتان على الأرض. وقد بدت في شدة الحزن.

قال مايلز: «إيديث! عزيزتي.»

لاحظ إدوارد أن السيدة ارتعدت قليلًا عندما تحدث مايلز، وبدأ وجهها يحمر.

رفع هيو يده ووقف بينهما، واستدار ناحية إيديث، وقال: «انظري إلى هذا الرجل، هل تعرفينه؟»

صمتت لحظات قليلة قبل أن تنظر إلى أعلى وتقول سريعًا: «لا أعرفه.» وعادت لتحملق في الأرض. وبعد لحظة، ركضت خارج الغرفة، وهي تغالب دموعها.

انهار مايلز على أحد الكراسي، وأمسك رأسه، وتأوه.

دخل الخدم الغرفة، وسألهم هيو هل يعرفون مايلز، فهز الجميع رءوسهم منكرين في صمت.

قال هيو: «إذن هذا ما قد طلبته. لا بد من وجود خطأ ما. فلم يتعرف الخدم عليك، وكذلك زوجتي لم تتعرف ...»

رفع مايلز بصره إلى هيو وقال: «زوجتك؟!» وفي لحظة، كان هيو مثبتًا قبالة الحائط. «الآن علمت ما فعلته. لقد كتبت هذا الخطاب بنفسك، وأقنعت الجميع أنني توفيت وأخذت مكاني. فأي سبب آخر كان سيدفع إيديث للزواج منك؟ لقد أردت أموالها، فلفقت قصة وفاتي. لقد سلبتني حبي!»

نادى هيو على الخدم ليساعدوه.

قال أحدهم: «لكن يا سيدي، إنه مسلح.»

فصرخ هيو: «هل جميعكم جبناء؟»

قال مايلز: «يمكنهم فعل ما يشاءون، لدي شيء واحد فقط أود قوله: أنا مايلز هيندون، سيد قصر هيندون، ولن أغادر. وعليك أن تتيقن مما أقوله!»

أشار هيو ثانيةً إلى الخدم، فسحبوا مايلز بعيدًا عن سيدهم. ونظر هيو إلى مايلز مستهزئًا قبل أن يندفع خارج الغرفة.

الفصل الخامس عشر

مايلز المدعي

جلس إدوارد ومايلز في الغرفة الأمامية لقصر هيندون يفكران في خطوتهما التالية. أو بالأحرى، كان مايلز يفكر فيما سيفعله بعد ذلك، بينما بدأ إدوارد يتساءل لماذا لم يكن هناك من يبحث عنه؟!

قال إدوارد: «لا بد أنهم قد أدركوا الآن أن محتالًا يعيش في القصر، فلماذا لم يأت أحد للبحث عني؟»

كان هناك طرق خفيف على الباب، ودخلت إيديث الغرفة. اندفع مايلز للأمام لتحيتها، لكنها رفعت يدها قليلًا، فتوقف مايلز في مكانه. كانت لا تزال جميلة، لكن يملؤها الحزن.

قالت له: «لقد جئت لأحذرك.» كان صوتها هادئًا، واستدارت للنظر خلفها عدة مرات. «زوجي سيد هذه المنطقة، وله سلطة على كل شيء وكل شخص.» صمتت لحظة ثم قالت: «ودائمًا ينفذ ما يريد.»

تجاهل مايلز تعليقاتها، وقال: «ألا تتعرفين عليَّ، يا إيديث؟ ألا ترين أنني مايلز؟»

ابتلعت ريقها وأخذت نفسًا عميقًا. لم تستطع النظر إليه في عينيه. «لا يمكنني سوى تحذيرك. يجب أن تهرب. يجب أن ترحل الآن.»

قال مايلز بحزم: «لن أترك منزلي مرة أخرى.»

«ألا تفهم؟» احمرت وجنتاها وأخذت تتنفس بصعوبة. «لم يعد هذا منزلك. إن زوجي طاغية، ولست بأمان هنا.» واستدارت لتنظر خلفها مرة أخرى. «كلانا في الواقع ليس آمنًا هنا.»

«أتطلبين مني الرحيل بعد ما قلته؟ هل تخشين أن يلحق بك أذى؟» واقترب منها مايلز، لكنها أوقفته مرة أخرى بإشارة من يدها.

قالت وهي تعطيه كيسًا من النقود: «أرجوك خذ هذه النقود. فستعينك في أسفارك.»

فقال مايلز: «قدمي لي خدمة واحدة. انظري إليَّ في عيني مرة واحدة فقط. انظري في عيني وقولي لي إنك لا تتعرفين عليَّ.»

وفي هذه اللحظة، انفتح الباب فجأة، واندفع عدد من الخدم إلى داخل الغرفة وأمسكوا بالزائرين. وبعد صراع مرير، هُزم مايلز، وسُحب هو وإدوارد بعيدًا، وزُج بهما في السجن.

الفصل السادس عشر

السجن

كانت زنزانة السجن مكتظة وشديدة القذارة. رجال ونساء كانوا محبوسين داخل هذا المكان الضيق، بعضهم مكبل إلى الحائط، والبعض الآخر مقيَّد إلى الأَسِرة. ولم يتسع المكان لأحد ليتحرك في أرجائه.

عند وصولهما المكان في بادئ الأمر، كان الغضب والأسى يسيطران على مايلز، ولم يستطع التفكير بذهن صاف. فكان كل تركيزه منصبًا على جرائم أخيه ولم يستطع التفكير في أي شيء آخر. لكن بعد فترة من الوقت، بدأ مايلز يهدأ. وحاول أن يقرر هل تعرفت عليه إيديث أم لا، لكنه لم يستطع فهم الأمر. فقد كانت عودته إلى المنزل تجربة صاعقة ومخيبة للآمال.

مرت بضعة أيام، ومايلز وإدوارد يصابان بالهزال في زنزانة السجن. فقد عانيا من الأجواء القذرة والطعام الرديء. وتوقف إدوارد عن ادعاء كونه ملكًا، حيث كانت الأمور صعبة بما فيه الكفاية مع مناداة الجميع لمايلز بالمحتال.

حظي مايلز بشهرة كبيرة في السجن، فكان الحراس يتوقفون عنده في أحيان كثيرة ليهينوه. وكانوا يحضرون في بعض الأحيان أشخاصًا ربما يتعرفوا عليه، لكن لم يقل أحد إنه يعرفه. وفي أحد الأيام أحضروا رجلًا عجوزًا كان سجينًا أيضًا، وكان أحد الخدم القدامى في قصر هيندون. أشار الحراس إلى مايلز، وسألوا الرجل: «هل هذا سيدك السابق؟»

نظر الرجل العجوز إلى مايلز، وهز رأسه، وهو يقول: «ليست لدي أي فكرة عما تتحدثون عنه، فلم أر هذا الرجل في حياتي من قبل.»

ضحك الحراس مرة أخرى، وتركوا الرجل العجوز مع مايلز. وعندما أصبحا في مأمن من أن يسمعهما أحد، همس الرجل العجوز: «حمدًا لله!» وابتسم. «سيدي عاد أخيرًا. لقد ظننا أنك ميت طوال تلك السنوات.»

قال مايلز: «جورج؟ هل هذا أنت؟ ماذا تفعل هنا؟»

– «ما تفعله أنت. لقد ألقى أخوك بالكثير منا هنا. ولولا اتساخ ملابسنا وحالتنا المزرية، لتعرفتَ على الكثير منا.»

وهكذا علم مايلز قصة أسرته. توفي آرثر، كما أخبره هيو، منذ ست سنوات. ووطأة موت آرثر واختفاء مايلز أدت إلى مرض سير ريتشاد. وأراد سير ريتشارد أن ينعم هيو وإيديث بالأمان ويتزوجا، لكن إيديث ترجته الانتظار، فكانت موقنة أن مايلز سيعود أو سيبعث لهم بأخباره. ووافق سير ريتشارد، ثم وصل خطاب في أحد الأيام يوضح أن مايلز قُتل في إحدى المعارك. وشعر سير ريتشارد أنه لا جدوى من الانتظار أكثر من ذلك، وتزوج هيو من إيديث. ولم يمر وقت طويل حتى انتشرت الشائعات في الأنحاء بأن إيديث قد عثرت على عدد من مسودات الخطاب، الذي يحمل أخبار وفاة مايلز، مكتوبًا بخط يد زوجها. لكن لم يكن لديها أي أمل في الطلاق، فليس لها عائلة أخرى أو أي موارد دعم. وإذا رحلت، فسيأخذ هيو كل أموالها ولن يصبح لديها أي شيء. وعندما توفي سير ريتشارد، استولى هيو على ثروة الأسرة أيضًا. لم يحبه الناس كثيرًا، في الواقع كانوا يخافونه. كان الجميع يعلمون أنه لا يتردد في الزج بالناس في السجن. ولم يشعر أحد بالأمان في مواجهته.

قال مايلز: «هذه رواية مفزعة يا جورج. ليته كان بإمكاني فعل أي شيء لتغييرها.»

فرد جورج: «إنه زمن غريب. لقد سمعت شائعات أخرى عن أن الملك القادم مجنون، وسمعت أنهم يبعدونه عن عامة الناس.»

فجأة رفع إدوارد صوته قائلًا: «الملك القادم ليس مجنونًا! من الأفضل أن تهتم بشئونك.»

هز الخادم العجوز كتفيه وعاد إلى أفكاره.

قال جورج: «من المقرر دفن الملك خلال يوم أو اثنين، وسيتوج الملك الجديد بعد ذلك بأيام قليلة. كم كنت أتمنى المشاركة في الاحتفالات، فالمرء يفوته الكثير من الأمور وهو في السجن.»

جلس إدوارد مصدومًا؛ هل لا يزال ذلك الصبي القروي الصغير موجودًا في القصر؟ ولأول مرة يدرك إدوارد أن شخصًا آخر قد يتوج ملكًا بدلًا منه.

عند انتهاء مدة سجنهما أخيرًا، عاد مايلز وإدوارد ثانيةً للترحال على الطريق. وكان الحزن يملأ نفس مايلز، حيث كان يعلم أنه لن يستطيع العودة إلى المنزل. سوف يزج به هيو مرة أخرى ببساطة في السجن بوصفه محتالًا. كل ما كان يأمله ذهب أدراج الرياح، وكل أحبائه رحلوا عن دنياه. وكان يتساءل هل فقد قدرته أيضًا على المقاومة.

من ناحية أخرى، اكتسب إدوارد قوة جديدة، وسار على طول الطريق والتصميم يملؤه. لمحه مايلز، وللحظة نسي مشكلاته الخاصة، وشعر بالابتهاج.

قال مايلز: «لم أسألك إلى أين نحن ذاهبون؟»

– «إلى لندن بالطبع.»

عندما وصل مايلز وإدوارد إلى المدينة بعد بضعة أيام، اكتشفا أنهما وصلا في الوقت المناسب. فالملك هنري دُفن، وسيتُوج توم ملكًا في اليوم التالي.

الفصل السابع عشر

يوم التتويج

خيم الحزن على حياة توم في القصر. فكانت المملكة لا تزال تبكي الملك هنري، كما أن الأسى الذي كانت تشعر به إليزابيث وجين أزعج توم أيضًا. لكن مع كل هذا، كان توم يتعلم كيف يستمتع بحياته كملك قادم. فكان يقرأ الكتب متى يشاء، ويطلب رؤية إليزابيث وجين متى يشاء أيضًا. كان بإمكانه تناول جميع أنواع الطعام التي يشتهيها. وحتى مراسم ارتداء الملابس وخلعها كان يستمتع بها. لقد أحب ملابسه الثمينة وطلب المزيد منها. وكان مولعًا بوجه خاص بسماع النداء: «افسحوا الطريق أمام الملك.» كلما دخل أي غرفة.

هل فكر توم في الملك الشرعي؟ ذلك الصبي الذي لا يزال مفقودًا في مكان ما بهذا العالم؟ في الأيام القليلة الأولى، أضناه الشعور بالذنب والقلق. لكن سرعان ما تلاشت هذه المشاعر، بل وتلاشى كذلك قلقه على والدته وأختيه. وعندما كان يفكر فيهن — بملابسهن الرثة وشعرهن الأشعث — كان يشعر بقشعريرة في جسده. وفي النهاية أصبح بالكاد يفكر فيهن.

في صباح يوم التتويج استيقظ توم على صوت موسيقى. كانت هذه الموسيقى تُعزف خصيصًا من أجله؛ فهذا هو اليوم الذي سيصبح فيه ملكًا متوجًا. كان الفرح والابتهاج يعمَّان أرجاء البلاد. وشعر توم بفرحة عارمة بلا شك.

وعند وصول توم إلى الكنيسة، أُرشد إلى واجهتها. نظر توم إلى الناس المجتمعين حوله، وكانوا جميعهم سعداء ومتحمسين. هللوا لحضوره وصاحوا: «الملك إدوارد.» وامتلأ قلب توم بالفخر، وشعر أنه ما من شيء أكثر أهمية من أن يكون المرء ملك إنجلترا.

وفجأة وقعت عينا توم على والدته، فصعقته الصدمة، ووضع يده أمام وجهه، مع توجيه راحتها للخارج، ليحجب رؤيته. تذكرت والدته هذه الإيماءة، فعلمت على الفور أنه ابنها!

اندفعت الأم تشق طريقها لتصل إلى مقدمة الجمع وأمسكت بذراعه، وقد بدأت تبكي. قالت منتحبة: «آه، يا بني! حمدًا لله على سلامتك! لقد صليت من أجلك كل ليلة وكل صباح.» ونظرت إليه والسعادة تملأ وجهها.

كان توم على وشك أن يقول: «أنا لا أعرفك» عندما سحبها أحد الحراس من أمام توم، وألقى بها على الأرض موجهًا إليها تهديدًا صارمًا. وعندما رأى توم أمه وهي تقع، كاد قلبه ينفطر، وانمحى شعوره بالفخر سريعًا. ولأول مرة منذ أسابيع، لم يرغب توم في أن يكون ملكًا.

استمر الجمع في الهتاف باسم الملك إدوارد، لكن توم لم يستطع سماعهم. فقد عاوده الشعور بأنه محاصر، وكان الشيء الوحيد الذي يمكنه سماعه هو صوته، فأخذت كلمات «أنا لا أعرفك» تتكرر مرارًا وتكرارًا في رأسه.

لاحظ لورد هيرتفورد أن توم مخفوض العينين وترتسم على وجهه نظرة حزينة، فهمس له: «جلالتك، سيلاحظ الناس أنك غير سعيد، وهذا لا يصح اليوم. يجب أن تبتهج حتى يبتهجوا هم أيضًا.»

نظر توم إلى هيرتفورد، وكان خائفًا من الانخراط في البكاء. وقال بهدوء: «لكن هذه السيدة أمي.»

شهق لورد هيرتفورد. لقد عاد الملك إلى جنونه من جديد! لقد ظنوا جميعًا أن الصبي قد أخذ يتعافى. لا بد أن السبب هو الإثارة التي يحملها اليوم. وفكر هيرتفورد: «لا بد أن نراقبه جيدًا تحسبًا لأن يقول أكثر مما يجب قوله.»

قاد هيرتفورد توم إلى العرش، الذي كان موجودًا على منصة خاصة بحيث يتمكن كل من في الكنيسة من رؤيته. جلس توم ببطء شديد، ونظر حوله. كان الجمع هادئًا أثناء انتظارهم لوضع التاج على رأسه. وكان الصوت الوحيد الذي تمكن توم من سماعه هو صوت أنفاسه، حيث كانت عالية للغاية.

حمل رئيس أساقفة مدينة «كانتربري» التاج الملكي، وسار باتجاه توم. وأمسك بالتاج فوق رأس الصبي، وتلى صلاة قصيرة. وفي اللحظة التي كان رئيس الأساقفة على وشك وضع التاج على رأسه، صاح صوت ما قائلًا: «أمنعك من وضع تاج إنجلترا على رأس هذا المدعي. أنا الملك الحقيقي!»

أحاطت على الفور مجموعة من الحراس بإدوارد. وبينما كانوا يحاولون سحبه من الكنيسة، سمعوا صوتًا آخر.

قال توم: «توقفوا! اتركوه. إنه الملك!»

بدأ الجمع في التمتمة والاهتياج. ما هذا الذي يحدث؟ لم يشهد أحد شيئًا كهذا من قبل.

خطا هيرتفورد إلى مقدمة المذبح، وصاح: «لا تفزعوا! يعاني الملك فقط من إحدى نوباته. لا تعيروه انتباهًا.» وأشار هيرتفورد إلى إدوارد، الذي لا يزال محاطًا بالحراس. «أخرجوا هذا المتسول من هنا على الفور.»

قال توم: «لا تلمسوه. آمركم أن تتركوه.» فحرر الحراس إدوارد من قبضتهم. «أنا أخبركم أنه ملك إنجلترا الحقيقي.»

سار إدوارد إلى المذبح وصعد الدرجات، وركض توم للقائه، وعانقه بحرارة.

قال توم: «أنا سعيد للغاية لأنك عدت أخيرًا.» واندهش توم لمدى الراحة التي شعر بها الآن بعد انتهاء الأمر.

شهق كل من في القاعة عندما وقف الصبيان جنبًا إلى جنب. فكانا متطابقين. هل يُعقل أن ملك إنجلترا كان يعيش حياة الفقراء؟ وهل كادوا يتوجون أحد الفقراء ملكًا على إنجلترا؟

قال هيرتفورد: «هذا مربك للغاية. لست متأكدًا مما يجب فعله.»

قال إدوارد: «اطرح عليَّ سؤالًا، أي سؤال له علاقة بالبلاط الملكي.»

وهكذا سأل هيرتفورد وبعض اللوردات الآخرين إدوارد بعض الأسئلة، التي أجاب عن جميعها إجابات صحيحة. وشعر توم بالإثارة، فيبدو أنه سيتمكن من العودة للمنزل قريبًا.

وأخيرًا قال هيرتفورد: «أعترف أن هذا مثير للغاية، لكن ملكنا الصغير يمكنه فعل الأمر نفسه، وهذا ليس إثباتًا على أن المتسول هو الملك.»

خطا اللورد الوصي إلى الأمام، وقال: «لديَّ سؤال، إذا كنت الملك الحقيقي، فسوف تعرف الإجابة عنه. أين الختم الملكي؟ إنه مفقود منذ عدة أيام.»

بدا إدوارد مدهوشًا، فهو لا يتذكر أين رأى الختم الملكي آخر مرة.

حاول توم، ملاحظًا ارتباك إدوارد، مساعدته. «أرجوك أن تمعن التفكير، جلالتك، وأنا موقن أنك ستتذكر. ماذا فعلت آخر يوم لك في القصر؟»

نظر إدوارد إلى توم. إنه يقدر مساعدة هذا الفتى، ربما لا يكون سيئًا كما اعتقد. «حسنًا، كنت أعمل مع لورد هيرتفورد في غرفتي، وكان الختم الملكي معنا آنذاك!» بدا إدوارد راضيًا عن نفسه. «وقد تركت أوراق عملي على المكتب وخرجت لأتريض في الفناء، حيث رأيتك عند البوابة.» وأومأ إدوارد برأسه لتوم.

«وعدنا إلى غرفتي لنتناول الطعام، وتبادلنا ملابسنا، ثم ركضت أنا خارجًا لأتحدث مع الحراس ...» صمت إدوارد لحظة، ثم صاح: «انتظر، أتذكر الآن. قبل أن أترك الغرفة، خبأت أوراق عملي والختم الملكي.» وأخبر إدوارد اللورد الوصي أن يبحث في درج سري بالجزء الخلفي من مكتبه، وسيعثر على الختم الملكي هناك.

انتظر جميع من في الكنيسة، والهدوء يخيم عليهم، بينما فتش اللورد الوصي وبعض الحراس المكتب. حدق توم وإدوارد أحدهما في الآخر بعينين متسعتين. لا يصدق أي منهما أن هذا الأمر قد أوشك على الانتهاء. وتلا كلاهما صلوات في صمت داعين الرب أن يعثر الحراس على الختم الملكي.

ركض اللورد الوصي عائدًا إلى الكنيسة، وقد أمسك الختم الملكي رافعًا إياه عاليًا في الهواء، وبدأ الجميع في التهليل.

– «عاش الملك الحقيقي! عاش الملك إدوارد الحقيقي!»

سار توم بعيدًا عن العرش، وخلع رداءه وقدمه لإدوارد.

أشار اللورد الوصي إلى توم. «أيها الحراس! خذوا هذا المحتال إلى السجن!»

قال إدوارد بحزم: «كلا! فلولاه ما تمكنت من استعادة مُلكي. لا يؤذي أحد هذا الصبي، إنه صديق مخلص.»